

واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال رحلة ابن جبير (ت614هـ/1217م)

The reality of Maliki Doctrine through The journey of Ibn jubair
(D 614 AH/ 1217 AJ)

نورالدين بوذينة*

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)، BOUDINANOUR1986@GMAIL.COM

تاريخ الإرسال: 2023 /03/04 تاريخ القبول: 2023 /03/27 تاريخ النشر: 2023/06/10

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال رحلة ابن جبير الذي عاش في القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي ، بذكر المواضع التي تناول فيها واقع المذهب المالكي في الحجاز في رحلته، والحضور العلمي لمالكية المغرب الإسلامي في بلاد الحجاز فيها، ثم القيام بتحليل هذه الصورة التي نقلها إلينا حول المذهب، وطبيعة العلاقة بين المذهب المالكي والمذاهب الفقهية الأخرى أثناء تدوين رحلته، ومن ثم تقييم كتاباته حول هذا الواقع الذي نقله لنا، وفي الأخير نختم بذكر أهم النتائج التي المتحصل عليها.

الكلمات المفتاحية: المذهب المالكي؛ الحجاز؛ الرحلة؛ ابن جبير .

Abstract:

This study aims to reveal the reality of maliki doctrine through The journey of Ibn jubair in The Sixth century AH/ The twelfth AJ, to list the places of Malikia in Hejaz, The presence scientific The Malikia of Islamic Maghreb, Analyze this image about this doctrine and her relation with other doctrines, evaluate his writing about this reality ,finally list the most important results obtained in this study.

Keywords: the doctrine maliki ; the journey; the journey; Hejaz.

مقدمة:

عرف المذهب المالكي منذ ظهوره انتشارا سريعا بالمغرب الإسلامي في فترة وجيزة، وفي ظاهرة مميزة وفريدة لم تشهدها المنطقة من قبل، حيث لم يعرف المغرب الإسلامي مذهباً فقهياً حقق مثل هذا التوسع والانتشار الذي حققه المذهب المالكي، بفضل أبنائه الذين تتلمذوا على إمام المذهب في بلد المنشأ والظهور الحجاز، حتى أصبح المغرب الإسلامي والمذهب المالكي وجهان لعملة واحدة، لا يكاد يفصل بينهما لدى عامة الناس، فضلا عن المتخصصين والدارسين للحياة الفقهية، ونظرا لهذه المكانة جعلت من منطقة الحجاز الوجهة الرئيسة لأتباع المذهب.

وفي إطار هذا الموضوع ارتأينا إلى البحث عن أحوال المذهب المالكي في الحجاز من خلال كتب الرحلات، هذه الأخيرة التي تعتبر من المصادر التاريخية التي تحتوي على معلومات على قدر كبير من الأهمية، لذا وجب الاهتمام بها، ولعل من أبرز كتب الرحلات الأندلسية التي لاقت رواجاً واسعاً لدى المؤرخين والباحثين، رحلة ابن جبير الأندلسي، التي جاب فيها بعض أجزاء العالم الإسلامي في منتصف القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي، ودون فيها ما شاهده غالباً، ولكن ما يهمنا في رحلته ما نقله عن المذهب المالكي في المناطق التي زارها في الحجاز.

لذا حاولت أن أتطرق إلى هذا الموضوع في دراسة وصفية تحليلية، بذكر واقع المذهب المالكي في الحجاز، في رحلته، وطبيعة الحضور العلمي لمالكية المغرب الإسلامي في بلاد الحجاز فيها، ثم القيام بتحليل هذا الواقع، وطبيعة العلاقة بين المذهب المالكي والمذاهب الفقهية الأخرى، ومن

ثم مقارنة كتاباته حول هذا الواقع مع ما ورد في المصادر التاريخية الأخرى، بالإضافة إلى طبيعة الحياة المذهبية والعلمية، كل ها من خلال رحلته، وفي الأخير نختم بذكر أهم النتائج التي المتحصل عليها.

الإشكالية الرئيسية: ما واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال كتب الرحلات الأندلسية

رحلة ابن جبير ؟

التساؤلات الفرعية:

- من هو ابن جبير؟ وما رحلته؟
 - كيف وجد المذهب المالكي في الحجاز؟
 - هل تضمنت رحلته حضورا علميا لمالكية المغرب الإسلامي في بلاد الحجاز؟
 - هل كانت كتابته حول المذهب المالكي مطابقة لواقعه في المصادر التاريخية المعتمدة؟
 - ما طبيعة العلاقة بين المذهب المالكي والمذاهب الفقهية الأخرى في هذه الرحلة؟
 - هل ورد في رحلته جوانب من الحياة المذهبية والعلمية؟
- أما أهمية هذا الموضوع، تتمثل في إبراز واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال كتب الرحلات الأندلسية رحلة ابن جبير ، وسبب اختيار هذا الموضوع، لغياب دراسة من هذا النوع، فلم أر أحدا عالجها -حسب علمنا- وأما الهدف منه إبراز مكانة المذهب المالكي في الحجاز في زمن الرحلة.

لهذا عازمت على الكتابة في هذا الموضوع، أما المنهج المستخدم فتنوع بين المنهج الاستقرائي في استخراج واقع المذهب المالكي في الحجاز في هذه الرحلة، ثم المنهج التحليلي في

مناقشة هذا الواقع الذي نقله إلينا صاحب الرحلة، وفي تقييم كتابته حوله، واستخدمت المنهج الوصفي عند عرض هذا البحث وتحريره وذكر أهم النتائج المتوصل إليها.

1- التعريف ابن جبير ورحلته وأهميتها:

1-1 ابن جبير: (539 - 614هـ / 1144-1217م)

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني، يكنى أبا الحسين، بلنسي الأصل، ثم غرناطي الاستيطان. شرق، وغرب، وعاد إلى غرناطة، كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا، كتب بسبته وبلغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة، ثم توجه إلى المشرق. وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. وشيوخه كثير منهم من سمع عنهم وأجازوا له: مثل بركات الخشوعي، وكذلك أخذ عنه: خلق كثير منهم، بالأندلس أبو إسحاق بن مهيب، وابن الواعظ، ومن الإسكندرية، رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله، وبمصر رشيد الدين بن العطار، وسكن غرناطة، ثم مالقة، ثم سبتة، ثم فاس، وكانت وفاته بالإسكندرية، في رحلته الثالثة والأخيرة إلى المشرق،¹

أما تصانيفه: ذكر لابن جبير مصنفات غير رحلته منها مجلد متوسط على قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس، ومنه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» في مرثي زوجه أم المجد، ومنه جزء سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان». «وله ترسيل بديع، وحكم مستجادة»، ولم يبق من مصنفاته، إلا رحلته هذه،

1-2 رحلته:

كان لابن جبير ثلاث رحلات من الأندلس إلى المشرق، لعل أشهرها رحلته هذه التي دون فيها، وصفها لسان الدين بن الخطيب، بقوله: ورحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار، قام بها من

سنة 578 هـ/1182م، صحبة أبي جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه غرناطة بعد عامين سنة 581 هـ/1185م، ولقي بها أعلاما، وصنف فيها الرحلة المشهورة، التي تناولها بالدراسة في موضوعنا هذا، وذكر ما شاهده من عجائب البلدان، وغرائب المشاهد، وبدايع الصنائع.

1-3 أهميتها:

جاء موضوعها حافلاً بالمشاهد والتجارب التي اكتسبها أثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن، ورؤيته لغرائب المشاهد، وإطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الحقبات من الزمن. وفيه وصف المساجد ومناسك الحج ومجالس الوعظ والمعابد والحصون والكنائس والمستوصفات والمستشفيات. قال المراكشي عن رحلته: كتابٌ مُتَمِّعٌ مُؤَنَسٌ مثيرٌ سواكنِ النفوسِ إلى الوفاةِ على تلكِ المعالمِ المكرَّمةِ والمشاهدِ المعظَّمة².

أما قيمتها وأهميتها تكمن في أنه رسم لنا صورة حية عن الحياة في ذلك العصر، حيث وصف لنا بأسلوب حيوي مصر والشام في العهد الذي بدأت فيه حركة الإسلام التحررية ضد الصليبيين بقيادة نور الدين وصلاح الدين. كما أنه أجاد وانفرد في وصف المسلمين القاطنين في جزيرة صقلية. ثم إن هذا الكتاب جاء بأسلوب أدبي ومسجع في الأغلب. مما جعل رحلته أن تحتل مكانة رفيعة في الجانب الأدبي من بين سائر الرحلات³.

2- واقع المذهب المالكي حسب ابن جبير:

بعد استقراءنا لرحلة ابن جبير استطعنا ترتيب الأخبار الواردة في رحلته حول المذهب المالكي في الحجاز، تبعا للأماكن التي زارها وفق ما يلي: وقبل الشروع في عرض حال المذهب المالكي، وجب علينا تحديد ما المقصود بالمذهب المالكي؟

يقصد بالمذهب المالكي المذهب الفقهي الذي ينتسب ويرجع إلى مؤسسه الإمام مالك (ت179 هـ/795م)⁴ كان ظهره ونشأته في الحجاز بالضبط في المدينة المنورة، وفي المسجد النبوي حيث كان يلقي دروسه على طلبته وتلاميذه، ويقوم مذهبه على العديد من الأسس في الفقه، كعمل أهل المدينة وفتوى الصحابي والقياس والمصالح والاستحسان وغيرها⁵، وانتشر مذهبه

عن طريق تلاميذه في الكثير من أصقاع العالم الإسلامي، وعرف مدا وانحسار فيها، عبر فترات من الزمن، إلا أنه لم يعرف الاستمرار والبقاء إلا في بلاد المغرب إلى يومنا هذا.

2-1 في الحجاز:

أورد لنا ابن جبير عبارة تلخص واقع وحال المذهب المالكي أثناء زيارته للحجاز والحرم المكي، وبالأخص عند دخوله الحرم المكي، ووصفه لإمامة الصلاة فيه، عند حديثه عن أضواء وقناديل أو كما سماها ابن جبير مشاعيل توقد في صحاف حديد فيتقد الحرم المكي كله نورا. وأيضا يوضع الشمع بين أيدي الأئمة في محاريبهم. فالحراب المالكي أقلهم شمعا وأضعفهم حالا لأن مذهبه في هذه البلاد غريب.⁶

من خلال هذه العبارة التي أوردها ابن جبير يتضح لنا أن وجود المذهب المالكي في الحجاز ضعيف وشبه منعدم، وأصبح غريبا في بلده الأصلي بلد النشأة والظهور.

كما بين لنا ابن جبير أن الغالبية العظمى من الناس في هذه البلاد، هم أتباع المذهب الشافعي، لأن هذا المذهب عليه عامة علماء البلاد وفقهائها وأهلها، كما سنلاحظ فهو مذهب الخليفة العباسي.

2-2 أثناء الطريق إلى الحجاز:

ذكر ابن جبير في رحلته حين عبوره بلاد مصر وما شاهده من مشاهد للمالكية في مقبرة القرافة⁷ بها لمشاهير وأعلام المذهب المالكي، كمشهد أشهب، ومشهد عبد الرحمن بن القاسم، مشهد أصبغ، مشهد القاضي عبد الوهاب، ومشهد المقرئ ورش⁸، وعندما حل ابن جبير بمدينة الإسكندرية في مصر في طريقه للحجاز، ذكر أنه وجد بها مصلى لأداء صلاة الجمعة يرتاده أتباع المذهب المالكي في المدينة، وهذا يدل على تواجد معتبر للمالكية، لأن صلاة الجمعة يشهدها غالبية الناس مقارنة ببقية الصلوات الأخرى.⁹

ويتضح حال المذهب المالكي مع ابن جبير في مدينة الإسكندرية، دون مبالغة حيث أكد أن السيادة والسيطرة المذهبية في المدينة، تكاد تكون الغالبة فيها لمعتنقي المذهب المالكي، حيث أن أكثر أهلها مالكيون، كما ذكر ابن جبير رئيس المالكية زمن رحلته، وهو الفقيه ابن عوف،¹⁰ كما وصفه بالشيخ الكبير من أهل العلم، ومن بقية الأئمة المالكية في عهده.¹¹ وهذا ما يكشف لنا عن التنظيم الجيد والتعاون فيما بينهم الذي ميز مالكية الإسكندرية خصوصاً ومصر عموماً، من خلال أداء صلاة الجمعة معاً في مسجد، وتوحيدهم وخضوعهم لرئيس المالكية في زمانه. كما أن التواجد المالكي بالمشرق بوجه عام، يعتبر شحيحاً ويكاد يندر وجود أتباع له مقارنة بالمغرب الإسلامي.

2-3 داخل الحرم المكي:

تحدث ابن جبير في رحلته حين زار الحجاز في أواخر القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي أنه وجد بالحرم المكي أربعة أئمة سنية، من بينها الإمام المالكي،¹² حيث لم يكتف ابن جبير بذكر بشكل مجمل واقع الإمامة في الحرم المكي وإدارتها وتسييرها من طرف أئمة ممثلين للمذاهب السالفة الذكر، بل قام بالتفصيل في كيفية الإمامة لكل إمام أو مذهب في كل صلاة من الصلوات الخمس، ويبدو أن أول الأئمة صلاة بعد دخول وقتها، صلاة الإمام الممثل للمذهب الشافعي، ومكان وقوف إمامه خلف مقام إبراهيم، وقدم على غيره من المذاهب، لأنه مذهب الخليفة العباسي، أبو العباس أحمد الناصر¹³ بينما إمام المذهب المالكي، يصلي قبالة الركن اليماني، وصلاته مع صلاة الإمام الحنبلي في زمان واحد، وله محراب حجر يشبه محراب الطرق الموضوعة فيها على حد تعبير ابن جبير.¹⁴

رغم اختلاف زمان ومكان أداء الصلوات في الحرم المكي لأئمة المذاهب، إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث خلل في أدائها، أو في الأذان والإقامة لها، ونتج عن ذلك نوع من الفوضى في الحرم المكي، خاصة عند أداء صلاة المغرب حيث أن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها، ولقد عبر ابن جبير عن حال صلاة المغرب بالحرم المكي، قوله: "وربما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة. فرما ركع المالكي

بركوع الشافعي أو الحنفي أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه. فترى كل أذن مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو. ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس.¹⁵

كما شاهد ابن جبير في الحرم المكي أن المذهب الحنفي أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها بسبب أن الدولة العباسية كما سماها الأعجمية كلها على مذهبه، فلاحتيال له كثير، وصلاته آخرها.¹⁶ بينما الرئاسة داخل الحرم المكي كانت للإمام الشافعي بحكم تذهب الخليفة العباسي به. لأن الخليفة قام بالصلاة خلفه.¹⁷

كما عاين ابن جبير بالحرم المكي داراً لأحد أئمة المالكية أقيمت بجوار باب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي دار الفقيه المكناسي الذي كان إماماً للمالكية في الحرم في زمن سابق. وفي هذه الدار أيضاً غرفة خصصت للكتب، فهي بمثابة خزانة أو مكتبة للكتب الموقوفة لصالح شيوخ وتلامذة وأتباع المذهب المالكي الوافدين على الحرم المكي في مواسم من المغاربة أو غيرهم من أصقاع العالم الإسلامي. وضعت تحت تصرفهم للاستفادة والاستزادة والمطالعة فيها إذا اقتضت الحاجة.¹⁸

وهذا ما يبرز لنا عن مدى تبوء المالكية لمكانة في الحرم المكي قبل رحلة ابن جبير، كما أن بقاء بيت أو دار الفقيه المكناسي على حالها، رغم وفاته، وفي ظل سيطرة المذهب الحنفي والشافعي على الحرم المكي، مع تبني ودعم السلطة لهما، سواء في الحجاز أو في عاصمة الخلافة العباسية ببغداد، ويؤكد دون مجال للشك، عن تثبيت المالكية بمذهبهم رغم قلتهم وضعفهم مع أتباع المذاهب الأخرى خاصة الحنفي والشافعي.

كما أشار ابن جبير إلى المكان الذي يحرم منه المالكية عند إحرامهم بعمرة، حيث توجد أعلام أو رايات وضعت خصيصاً للفصل بين مكان الحل والحرام، فما دخلها إلى مكة حرم وما خارجها حل، وبقرىها مساجد يحرم منها المعتمرون، كمسجد عائشة، رضي الله عنها، خارج هذه الأعلام، الذي يصل إليه المالكيون ومنه يحرمون.¹⁹

واصل ابن جبير وصف ما عاينه من احتفالات داخل الحرم المكي، نظرا لدخول شهر رمضان المبارك، حيث قام أتباع كل مذهب فقهي بإيقاد الشموع وإظهار الفرح والسرور بحلول هذا الشهر، ولكن هذه المرة كان لإمام المالكية وأتباعه التقدم في الاحتفال، فهم أحفل جمعا وأكثر شمعا، لأن قوما من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعا كثيرا من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار، وقد حفت بمحا شمع دونهما صغار وكبار فجاءت جهة المالكية تروق حسنا وترتمي الأبصار نورا، كما اجتمع لإحياء تلك الليلة ثلاثة قراء يتناوبون على قراءة القرآن الكريم. ولكن الإمام الشافعي في التراويح هو أكثر الأئمة اجتهادا، وذلك أنه الإمام الوحيد الذي يكمل التراويح كالمعتاد.²⁰ ومن الملاحظ أيضا أن تواجد المالكية في الحجاز، لم يقتصر على التواجد الديني المتعلق بأداء فريضة الحج وتأدية العمرة فحسب، بل كان ممثلا حتى على مستوى فئة التجار الذين دانوا بالمذهب المالكي.

ويظهر اسم المذهب المالكي مرة أخرى في رحلة ابن جبير، ولكن ليس داخل الحرم المكي، بل بالقرب منه، في أحد أهم أركان الحج، عند انتهاء الحجيج الوقوف بعرفة، فلما ينفروا من عرفة عند وقت المغرب، فهم ينتظرون أي جميع أتباع المذاهب الفقهية الأخرى، تحرك نفر الإمام المالكي لأنهم جعلوه قدوتهم في النفير أي من عرفة إلى مزدلفة، لأن مذهب مالك، رضي الله عنه، يقتضي أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب.²¹ فلما أن حان الوقت أشار الإمام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفعت الناس بالنفر دفعا ارتجت له الأرض ووجفت الجبال.²²

رغم ما عرفه المذهب المالكي وأتباعه من حضور محتشم وقليل، فلا يعكس هذا الحضور الصورة الحقيقية التي يحوزها هذا المذهب، إلا أن هذه القلة لم تقص الفقه المالكي من التواجد حيث كان هو المسير لحركة الحجاج من مشعر عرفة إلى مزدلفة.

2-4 خارج الحرم المكي:

قد رأينا فيما سبق كيف وصف ابن جبير حال المالكية والمذهب المالكي داخل الحرم المكي، أما خارجها فلم يشير إلى المذهب المالكي، ما عدا ما ذكره حين زار مقبرة البقيع التي رأى

بما قبر إمام المذهب، الإمام مالك بن أنس الإمام المدني، رضي الله عنه، ووجد عليه قبة صغيرة مختصرة البناء.²³ كما أفاد ابن جبير أيضا أنه التقى بأبي إبراهيم اسحاق بن إبراهيم التونسي²⁴ في الحرم المدني الذي أطلق عليه وصف الشيخ الإمام العالم الورع، بقية العلماء، وعمدة الفقهاء.²⁵

وأيضا من خلال ما التقى به من المغاربة حين مروره بمدينة الطائف ، ففي أحد بطون أوديتها وجد جماعة من المغاربة يعملون في مزارعها وبساتينها ، لديهم البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات. ولا شك أن هؤلاء المغاربة من معتنقي المذهب المالكي.²⁶

3- مدى تطابق ما كتبه ابن جبير في رحلته مع المصادر التاريخية:

بعد اطلاعنا على بعض المصادر، تبين أنها تتكاد تتوافق مع ما جاء في رحلة ابن جبير حول واقع المذهب المالكي في الحجاز زمن رحلته، لقد أشار ابن خلدون إل الضعف والانحسار الذي عرفه المذهب زمن الدولة العبيدية في مصر،²⁷ وهذا ما يصدق على الحجاز كذلك، نظرا لتوسع الدولة العبيدية ، وأثر ومكانة المدرسة المصرية المالكية منذ القدم في تواصل أو انحسار المذهب، في رغم ما قاله القاضي عياض ت544 هـ/ 1149م حول غلبة المذهب المالكي على الحجاز إلى وقته، حيث عاش إلى منتصف القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي، إلا أن الملاحظ أن كتابه في طبقات المالكية "ترتيب المدارك..."، لم يرد فيه تراجم لفقهاء المالكية الحجازيين، تؤكد هذه الغلبة في المنطقة، حيث لم يترجم إلا نماذج فرادى عاشوا في القرن الرابع هجري والخامس هجري،²⁸

كذلك سار على نفس النهج محقق كتاب "شجرة النور الزكية..." الأستاذ عبد المجيد خيالي حينما أشار في مقدمة الكتاب إلى استمرار تواجد المذهب المالكي بالحجاز عبر الزمن منذ ظهوره، ولم يعرف أية انقطاع يذكر،²⁹ إلا أنه هو الآخر أيضا لم نجد ذكر لتراجم علماء وفقهاء مالكية الحجاز في الكتاب الذي حققه، حتى القرن الثامن هجري/ مثل: الشيخ رضي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الطبري المكي كان حيا سنة 713 هـ/1313م³⁰، ويتأكد كلام ابن جبير مع ما نقله المفكر الإسلامي أبو زهرة في مؤلفه حول تاريخ المذاهب الإسلامية ، فقال عن

انتشار المذهب: " كان من منطق الحوادث أن يكثر انتشاره في بلاد الحجاز حيث نشأ وانتظم، ولأنه استق من بيئة الحجاز، ولكن توالي الأيام على بلاد الحجاز، قد اختلف أحوال، فكان تارة يغلب، وتارة يخمل، حتى أنهم ذكروا أنه خمل بالمدينة أمدًا طويلاً، حتى تولى قضائها ابن فرحون عام 793 هـ/1391م، فأظهره بعد خمول.³¹

اعتبر ابن جبير أن تواجد المالكية في مصر في زمانه كان مقتصرًا على الاسكندرية، إلا أن المالكية كان لهم تواجد معتبر ونشاط علمي كبير في مصر كلها في هذه الفترة بالذات ، وليس في الاسكندرية فقط كما ذكر ابن جبير في رحلته.³² وأضاف ابن خلدون على ما قاله ابن جبير في الأسر المالكية مثل: بني عوف وبني سند وابن عطاء الله.³³

4- طبيعة العلاقة بين المذهب المالكي والمذاهب الفقهية الأخرى:

تحدث ابن جبير في رحلته حين زار الحجاز في أواخر القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي أنه وجد بالحرم المكي أربعة أئمة سنية ، ويقصد هنا بالأئمة السنية المذاهب الفقهية الأربعة وهي: المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، وإمام خامس كما سماه ابن جبير يمثل المذهب الزيدي³⁴ الخاص بفرقة الزيدية.³⁵

هذه الصورة التي نقلها لنا ابن جبير عن واقع الإمامة في الحرم المكي، تعكس بوضوح مدى الانفتاح والتسامح اللذان طبعا الحياة المذهبية في العالم الإسلامي وقتئذ، وقد تجلت صورتها في أهم مركز ديني إسلامي، والمتمثل في الحرم المكي، كما أن هذا الانفتاح لم يقتصر على المذاهب الفقهية المختلفة في الفروع فحسب. بل تعداه إلى الانفتاح مع من اختلف معه حتى في الأصول كالْمذهب الزيدي مثلاً. كما أن ابن جبير بوصفه هذا رسم لنا المعالم الرئيسة للخريطة المذهبية للعالم الإسلامي عصرئذ،

هذا الانفتاح لم يستفد منه المذهب المالكي فقط، بل انعكس على جميع مكونات الحياة المذهبية والفقهية، كما أن ابن جبير لم يشير إلى أي صراع أو نزاع عقدي أو فقهي حدث أثناء رحلته، كما من خلال ما سبق تبين أن طابع التسامح والتعايش بين مختلف المذاهب الفقهية، كما

لاحظنا ذلك عند نفيير الحجاج من عرفة إلى مزدلفة وفق مذهب الإمام، واحترام المذاهب الفقهية لذلك.

ومما ساء ابن جبير وجود المذهب الزيدي بالحرم المكي، وسماهم روافض سبابون، وذكر أن أشراف وأعيان مكة كانوا على المذهب الزيدي، ومما أحدثوه زيادة في الأذان، لفظ «حي على خير العمل» إثر قول المؤذن: «حي على الفلاح»، ولا يجمعون مع الناس الصلاة، إنما يصلون ظهرا أربعاء، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها، ومما يبرز نكران ابن جبير لهم، قوله بعد ذكر خبرهم: والله من وراء حسابهم وجزائهم.³⁶

5- الحياة المذهبية والعلمية في رحلة ابن جبير:

لم تحفل رحلة ابن جبير بالكثير من مظاهر الحياة العلمية والمذهبية، سواء ما تعلق منها بالمذهب المالكي أو غيره من المذاهب الفقهية الأخرى، فقد أخذ اهتمام ابن جبير بمظاهر المناسك وتصميم المباني ووصف وفود الحجاج الجانب الأكبر من رحلته، إلا أنه من خلال استقراء رحلته، أمكن لنا استخراج النزر القليل المرتبط بالجانب المذهبي والعلمي.

بداية من الملاحظ أن الأخبار الواردة في رحلة ابن جبير التي تصف الحياة المذهبية الفقهية أي ما يخص المذاهب الفقهية الأخرى، تكاد تتقاطع وتتشابه مع ما ورد في رحلته حول المذهب المالكي، فذكر أيضا في رحلته موقع الصلاة في الحرم المكي لكل مذهب فقهي، ووصف محاربيهم وكيفية احتفالهم بدخول شهر رمضان، وهيئتهم وحجم وفد كل مذهب ومكان إحرامهم³⁷ هذا فيما يخص الجانب المذهبي في رحلته، أما الجانب العلمي، فلم يكن أحسن حالا من الجانب المذهبي، فلقد غابت عنها تماما المظاهر العلمية في الحرم المكي وما جاوره في رحلته، ما عدا ما ذكره من مشاهدته مكتبة للمالكية في الحرم المكي، كما رأينا آنفا، وأيضا أشار إلى التقائه بالفقيه بالإسكندرية شيخ المالكية بالعالم التونسي اسحاق بن ابراهيم التونسي أبو ابراهيم في الحرم المدني، وعندما حل ابن جبير ببغداد وجد بها حياة علمية نشيطة، فأول ما شاهد بها مجلس الشيخ رضي الدين القزويني رئيس الشافعية، وفقهه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية،³⁸ وحظر كذلك درسا لمجلس ابن الجوزي ت597هـ/1201،³⁹ وقال فيه وصفا جميلا

عبر فيه ابن جبير عن إعجابه بالرجل، وأيما إعجاب، ومما قال عنه: " فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفراكل الصيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ومالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر، فأما نظمه فرضي الطباع، مهياي الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان.⁴⁰ وكذلك التقى بالشيخ صدر الدين الأصبهاني رئيس الشافعية في بغداد، فوصف خطبه ودرسه وطريقة قراءته، وحاله من الأبهة والتعظيم له من حاشيته وعامة الناس،⁴¹

رغم إعجاب ابن جبير بمجالس العلم والوعظ التي شاهدها في بغداد، ومن خواصها، وما يملكه علماءها وفقهاؤها من غزارة في العلم وسلاسة في الطرح وفهم ثاقب، إلا أنه بدا عليه الاستياء والتضجر من عامة أهل مدينة السلام، حيث ظهر عليهم التكبر والعجب والرياء وازدراء الغرباء واحتقار غيرهم، واعتقادهم أن مدينتهم جمعت كل أهل العلم والفضل والورع والدين، وأن ما سواها لا يملك شيء مثل ذلك فكيف بأحسن منه. هذا ما جعل ابن جبير يذكر أهالي بغداد ما هم عليهم من عيوب ونقائص، كتعاملهم بالربا وتطيف في المكيال واستغلالهم لغربة المسافرين، فلم يستثن من أهالي بغداد إلا فقهاءها المحدثين، ووعاظها المذكورين.⁴²

خاتمة:

بعد دراستنا لواقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال رحلة ابن جبير، أمكن لنا الحصول على النتائج التالية:

- يعتبر ابن جبير من أهم كتاب الرحلات سواء من حيث الوصف أو الأسلوب الذين استخدمهما في رحلته. وتميز كذلك بالدقة والتفصيل في سرد مشاهدته في الحرم المكي خاصة، والمشرق الإسلامي عامة. ما تعلق منها بالمباني والهياكل والمشاهد والمساجد والاحتفالات والابتهالات الدينية.

- لم يتجاوز ابن جبير في رحلته في الحجاز الأماكن المقدسة وما جاورها فقط، الحرمين المكي والمدني، ومنه لم تخرج أخباره عن المذهب المالكي في الحجاز من الحرمين.
- كان حال المذهب المالكي في الحجاز وواقعه وانتشاره من خلال رحلة ابن جبير ضعيفا ويكاد ينعدم نظرا لأسباب مختلفة خارجة عن إرادة رجال المذهب .
- هذا الضعف انعكس على الحضور العلمي لمالكية المغرب الإسلامي في بلاد الحجاز في رحلته.
- كانت الزعامة المذهبية في الحرم المكي للمذهبيين الشافعي والحنفي تبعا للسلطة المركزية في بغداد، والسلطة المحلية في الحرم المكي.
- تنوعت المواضيع المتعلقة بالمالكية في رحلة ابن جبير ما بين ذكر مشاهد رجال المذهب ومشاهيره، وحاله داخل الحرم المكي، وبقية من شيوخه في الحجاز ومصر، وبعض المغاربة الذين التقى بهم.
- توافق كلام ابن جبير حول المذهب المالكي في رحلته، مع ورد في المصادر التاريخية التي أرخت للمذهب المالكي ككتب طبقات المذهب.
- رغم أهمية الأخبار التي أوردها ابن جبير في رحلته حول المذهب المالكي، ولكنها لا ترق إلى طبيعة الحياة المذهبية وخصوصياتها، فهي أخبار تميزت بالسطحية دون عمق وتمحيص.
- تميزت مظاهر الحياة الدينية في الحرم المكي بالتسامح والتعايش بين المذاهب الفقهية، وغاب عنها التعصب المذهبي، رغم الاحتكاك الكبير بينهما، وتوافر أسباب الصدام كدعم السلطة السياسية لمذهب دون آخر.

- ارتبط المذهب المالكي بأهل المغرب أو بالمغاربة حتى في بلد المنشأ والظهور الحجاز، في ظاهرة غريبة وفريدة من نوعها، حيث ما ذكر المذهب المالكي، إلا وذكر معه المغاربة، فأصبحت معها وجهان لعملة واحدة، وهذه منقبة جميلة يفخر بها المغاربة قديما وحديثا .
- يعاب على ابن جبير أنه لم ينقل لنا مظاهر الحياة المذهبية والعلمية نشاطا أو ضعفا في الحجاز، أو حتى غيرها من المناطق التي زارها، وكان بإمكانه القيام بذلك بفضل مؤهلاته العلمية والشخصية.
- استدرك ابن جبير في بغداد ما فاتته في الحجاز في رحلته من وصف حول الحياة العلمية ومظاهرها، حينما ذكر بعض الشيوخ الذين شاهدتهم وحضر مجالسهم العلمية والوعظية.

المصادر والمراجع:

1. ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، (ت 776هـ/1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 2003م.
2. ابن جبير محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الأندلسي، أبو الحسين: رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
3. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت 808هـ/1406)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط: 2، 1988 م.
4. ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي أبو العباس (ت 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، 1900م.

5. ابن عبد الهادي محمد بن أحمد الدمشقي الصالحي أبو عبد الله (ت 744 هـ/1343م)، طبقات علماء الحديث، تح: أكرم البوشي، إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: 2، 1996 م.
6. أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى (ت 324 هـ/936م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط: 1، 2005 م.
7. أبو عبد الله بن عسكر، وأبو بكر بن خميس: أعلام مالقة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط - المغرب، ط: 1، 1999 م،
8. رمضان فوزي، دور المالكية في الحياة الفكرية في مصر خلال العصر الأيوبي 567-648 هـ/1171-1251م، مذكرة ماجستير، إشراف: بحاز إبراهيم بكير، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2009-2010م.
9. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
10. القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي أبو محمد (ت 422 هـ/1031م)، المعونة على مذهب عالم المدينة «الإمام مالك بن أنس»، تح: حميش عبد الحق، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز - مكة المكرمة.
11. القاضي عياض بن موسى اليحصبي أبو الفضل (ت 544 هـ/1149)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: ابن تاويت الطنجي، 1965 م، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط: 1.
12. محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة.

13. مخلوف محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (ت 1360هـ/1941م): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1، 2003 م.
14. المراكشي محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي أبو عبد الله (ت 703 هـ/1304م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط: 1، 2012 م.
15. ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله الرومي أبو عبد الله (ت 626هـ/1229)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط: 2، 1995 م.

الهوامش:

¹ لسان الدين ابن الخطيب محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، (ت 776هـ/1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 2003م، ج2، ص145، ص146. أبو عبد الله بن عسكر، وأبو بكر بن خميس: أعلام مالقة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط - المغرب، ط: 1، 1999 م، ص138 ص149.

² المراكشي محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي أبو عبد الله (ت 703 هـ/1304م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط: 1، 2012 م، ج3، ص505.

³ للتفصيل أنظر: مقدمة محقق رحلة ابن جبير: ابن جبير محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الأندلسي، أبو الحسين: رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

⁴ الإمام مالك: مالك بن أنس ابن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، الإمام الحافظ شيخ الإسلام، وفقه الأمة، أبو عبد الله الأصمعي المدني الفقيه، إمام دار الهجرة، أخذ عن شيوخ عصره، وأخذ عنه خلق كثير، له كتاب الموطأ في الحديث، قال عنه الشافعي: ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صواباً من "موطأ" مالك. أنظر: بن عبد الهادي محمد بن أحمد الدمشقي الصالحي أبو عبد الله (ت 744 هـ/1343م)، طبقات علماء الحديث، تح: أكرم البوشي، إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: 2، 1996 م، ج1، ص314.

⁵ أنظر: محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص366 وما بعدها.

⁶ ابن جبير، المصدر السابق، ص71.

7 القَرَافَة: مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين وترب للأكابر مثل ابن طولون والماذرائي تدلّ على عظمة وجلال، وبها قبر الإمام أبي عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي وغيره، ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله الرومي أبو عبد الله (ت 626هـ/1229)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط: 2، 1995 م، ج4، ص317.

8 ابن جبير، رحلته، ص21. ص22

9 ابن جبير، المصدر نفسه، ص27.

10 الفقيه ابن عوف: (ت 581هـ/1185م) أبو الطاهر إسماعيل بن مكّي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الفقيه العالم فريد عصره ووحيد دهره، كان عليه مدار الفتوى مع الورع والزهد وبيتته بالإسكندرية بيت كبير شهير بالعلم والفضل اجتمع منهم بالإسكندرية في وقت واحد سبعة روى عنه وبه تفقه وانتفع به في علوم شتى ألف تذكرة التذكرة في أصول الدين وغير ذلك عمر فانتفع الناس به. مخلوف محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (ت 1360هـ/1941م): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1، 2003 م، ج1، ص209.

11 ابن جبير، المصدر السابق، ص71.

12 ابن جبير، المصدر نفسه، ص70.

13 الخليفة العباسي الذي حكم زمن رحلة ابن جبير هو : أبو العباس، الناصر لدين الله أحمد بن الحسن بن المستنجد، عاش ما بين (553 - 626 هـ) (1158 - 1225 م) خليفة عباسي،. بوع بالخلافة سنة 575 هـ/1179م. من تصانيفه: روح العارفين في الحديث، أنظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج2، ص202.

14 ابن جبير، المصدر السابق، ص70.

15 ابن جبير، المصدر السابق، ص70. ص71

16 ابن جبير، المصدر نفسه، ص71.

17 ابن جبير، المصدر نفسه، ص114.

18 ابن جبير، المصدر نفسه، ص74.

19 ابن جبير، المصدر السابق، ص80.

20 ابن جبير، المصدر نفسه، ص122.

21 النفيّر من عرفة إلى مزدلفة: فمذهب مالك أن يقف الحاج بعرفة إلى أن تغرب الشمس ثم يمضي إلى مزدلفة، أنظر: القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي أبو محمد (ت 422 هـ/1031م)، المعونة على مذهب عالم المدينة «الإمام مالك بن أنس»، تح: حميش عبد الحق، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز - مكة المكرمة، ص576.

22 ابن جبير، المصدر السابق، ص137.

23 ابن جبير، المصدر السابق، ص155.

24 لم أجد له ترجمة في كتب الطبقات الشهيرة.

25 ابن جبير، المصدر السابق، ص150.

- 26 ابن جبير، المصدر نفسه، ص 89.
- 27 ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت 808هـ/1406)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط: 2، 1988 م، ج 1، ص 567.
- 28 القاضي عياض بن موسى اليحصبي أبو الفضل (ت 544هـ/1149)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: ابن تاووت الطنجي، 1965 م، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط: 1، ج 1، ص 65.
- 29 مخلوف محمد، المصدر السابق، ج 1، ص 4.
- 30 مخلوف محمد، المصدر نفسه، ج 1، ص 290.
- 31 محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 405.
- 32 أنظر: رمضان فوزي، دور المالكية في الحياة الفكرية في مصر خلال العصر الأيوبي 567-648 هـ/1171-1251 م، مذكرة ماجستير، إشراف: بحاز إبراهيم بكير، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2009-2010 م، ص 26 وما بعدها.
- 33 ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 1، ص 570.
- 34 المذهب الزيدي: فرقة شيعية سمو زيدية لتمسكهم بقول زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان زيد بن علي بويح له بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك، وكان يفضل علي بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولى أبا بكر وعمر ويرى الخروج على أئمة الجور ثم سمع من بعضه أصحابه الطعن على أبي بكر وعمر فأنكر ذلك على من سمعه منه فنفق عنه الذين بايعوه فقال لهم: رفضتموني. ومنها سمو الرفضة، أنظر: أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى (ت 324هـ/936م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط: 1، 2005 م، ج 1، ص 69.
- 35 ابن جبير، المصدر السابق، ص 70.
- 36 ابن جبير، المصدر السابق، ص 70.
- 37 ابن جبير، المصدر نفسه، ص 70، ص 72.
- 38 ابن جبير، المصدر نفسه، ص 174، ص 175.
- 39 ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ؛ كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنف في فنون عديدة، منها " زاد المسير في علم التفسير " وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله " المنتظم " في التاريخ، وهو كبير، وله " الموضوعات "، ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي أبو العباس (ت 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، 1900 م، ج 3، ص 140.
- 40 رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 176.
- 41 رحلة ابن جبير، المصدر نفسه، ص 158، ص 160.
- 42 رحلة ابن جبير، المصدر نفسه، ص 174.

